مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية
المجلد الثالث - العدد الثاني من ٤٥ الى ٤٩

شعبان ١٤٠٠ هـ
تموز ١٩٨٠ م

الشافعي
آثاره العلمية والأدبية

الدكتور حسين ناعسة
كلية الآداب

كان الامام محمد بن ادريس الشافعي عالما، وله مؤلفات ناهت على مائة وثلاثة عشر كتابا، وكان في الوقت نفسه اديبا يقول الاشعار المقبولة احيانا، والاشعار الفائقة في احيان اخرى.

صنّف الامام الشافعي كتبا كثيرة تجاوزت مائة وثلاثة عشر مؤلفا في الفقه والحديث والتفسير والادب .... وهي كتب قال الجاحظ فيها : ((نظرت في كتب الشافعي فاذا هي در منظوم لم أر أحسن تأليفا منه)) . (٢) . واهمّ مافي ايدينا منها كتابا ((الرسالة)) و ((الأمّ)) .

والرسالة كتاب في أصول الفقه ومصادر الاحكام الاسلامية وطرق استنباطها ، وقد تناول فيه الحديث عن الكتاب الكريم ،والسنة النبوية ،ومناهج الاجتهاد التي يعتمدها في بحوثه الفقهية ،من اجماع وقياس .... والتي لايعتمدها في هذه البحوث ،كالاستحسان ... ويعرض خلال ذلك لخبر الخاصّة وهو حديث الآحاد الذي يرويه محدّث عن محدث آخر .... الى نهاية السلسلة ،كما يعرض لشروط المجتهد وما ينبغي له من تمكّن في علوم الدين والعربية .

وتمضي الرسالة في اسلوب حسن متدفق واضح مؤثر للبيان مجانب للتكلف محكم للتقسيم ،ويكثر الامام الشافعي فيها من الحوار ،فهو دائما يبتكر اسئلة على لسان مناظره ،ويشققها ويفرّعها ،ثم يردّ عليها في استقصاء بالغ ،نافذا من هذه الاحكام الجزئية الى قانون كلي جامع لها ،وكثيرا مايحتجّ باللغة والاشعار ،ويعلّق على النصوص التي يوردها ابتغاء ايضاحها وتأكيد ما استدل بها عليه .

ويدور كتاب الامّ حول فقه الامام محمد بن ادريس والاحكام الشرعية التي ادّاه اليها اجتهاده ،سواء في مجال العبادات ،كالزكاة والصيام والاعتكاف والحج . .. ام في مجال المعاملات كالبيوع والرهن والهبة والنفقات واحكام الاسرة .....

والى جانب مؤلفات الامام الشافعي في علوم الدين بقيت له اشعار في الحكمة والتأمل والاعتبار والمواعظ والاخلاق . فهو يتفكر في معاده المحتوم هل هو جنة هنيئة ،او نار متلظيّة ؟ فإنّ الذي يدرك هول الحساب ليذرف الدمع تلو الدمع .بل يبكي الدم بدل الدمع ،ويقطع الليل تأملا وذكرا ،ويقل الكلام فيما سوى ذلك الذكر .

---

(١) ـ تهذيب الاسماء واللغات للنووي ١/١/٥٣ .

(٢) ـ تهذيب التهذيب ٩/٢٩ .

فياليت شعري ،هل اصير لجنة ... فأهنا ،وامّا للسعير فأندما

فللّه درّ العارف النّدب انه ... تسحّ لفرط الوجد اجفانه دما

يقيم اذا ما الليل جنّ ظلامه ... على نفسه من شدّة الخوف مأتما

فصيحا اذا ماكان في ذكر ربّه ... وفيما سواه في الورى كان معجما (١)

ذلك المصير هو المهيب الرهيب ،وهو مايخالف مألوف الشدائد في هذه الفانية ،فإنّ ذي ـ مهما كانت ـ زائلة قصيرة ،وان ايامها لآتية على كل نعيم فيها وكل ضنك :

عواقب مكروه الامور جبار ... وأيّام شرّ لاتدوم قصار

وليس بباق بؤسها ونعيمها ... اذا كرّ ليل ثم كرّ نهار

وكان الشافعي ينفذ من وراء تأمّلاته الى عبر كثيرة ،لعلّ من اطرفها مالحظه على اكثر الناس من الجنوح الى انتقاد الآخرين ، والعماية عن نقدهم لأنفسهم ،حتى لم يسلم من السنتهم احد ،انهم اذا رأوك صامتا رموك بالبكامة ،واذا وجدوك فصيحا اتهموك بالثرثرة ،واذا ألفوك صائم نهار قائم ليل قذفوك بالرياء .... فاضربْ عن اقوال هؤلاء صفحا ،ولا تخش الا الله وحده :

وما احد من السن الناس سالما ... ولو انه ذاك النبيّ المطهّر

فان كان سكيتا يقولون ابكم ... وان كان منطيقا يقولون اهدر

وان كان صواما وبالليل قائما ... يقولون زرّاق يرائي ويمكر

فلا تخش الا الله جل جلاله ... . (٢)

ولعله اتّضح من الامثلة المتقدمة ان شعر الامام الشافعي حسن بصورة عامة ،واحسن مافيه شرف معانيه وعفاف فكره ،على ان القارىء

---

(١) نور الابصار ٢٢٤ والروض الفائق ١٦ ،ومعجم الادباء ٣٠٢/١٧ .

(٢) نتيجة الافكار ٥ ،والهادر ،الساقط ،والزرق ،الكذب ،ونسبت الابيات في هدية الامم ص ١٩٦ الى ابن دريد مع اختلاف في بعض الالفاظ .

لأشعاره يحسّ في طائفة منها ابداعا ظاهرا ،وجمالا القاً ،يقول في تربية النفس واختيار الصديق :

صن النفس واحملها على مايزينها ... تعش سالما والقول فيك جميل

ولا ترين الناس الا تجمّلا ... نبا بك دهر اوجفاك خليل

وان ضاق رزق اليوم فاصبر الى غد ... عسى نكبات الدهر عنك تزول

ولا خير في ودّ امرئ متلّون ... اذا الريح مالت مال حيث تميل (١)

فمعانيه فاضلة تقوّم النفس وتحلّق بها في آفاق عالية صينّة ، وتنجو بها من مصاحبة المنافق المقيت ،وتزدان الابيات بصورة النفس المحمولة على مايرقي ويعلي ،وبتجسيم المصائب والارزاق ،وكشف الالوان المتقلبة لذي الوجهين او الوجوه ،وميلانه مع الريح كيفما تهبّ . ويكني بذلك عن الظروف والاحوال ،والالفاظ رقيقة ،والتراكيب محكمة ،والسياق منساب ،والقافية تتماشى معه في اتفاق وانسجام . ويقول:

الناس بالناس مادام الحياة بهم ... والسّعد لاشكّ تارات وهبّات

وافضل الناس مابين الورى رجل ... تقضى على يده للناس حاجات

لاتمنعنّ يد المعروف عن احد ... مادمت مقتدرا فالسعد تارات

واشكر فضائل صنع الله اذ جعلت ... اليك لالك عند الناس حاجات

قدمات قوم ومالت مكارمهم ... وعاش قوم وهم في الناس اموات (٢)

ويلفت النظر في النصّ ان ((لاشك)) عبارة غير مألوفة في ميدان الشعر ،الا انها قد جاءت هاهنا حسنة الموقع ،منسجمة مع السياق ، ويلفتنا ايضا تجسيم السّعْد فهو يهبّ هبوبا ،وتجسيد المعروف فها هي ذي يده ،وتشخيص المكارم فتلك هي حيّة ،وقد احكم الروىّ الهامس ((التاء)) فكان نهاية طبعية لامتكلفة ولامقسورة ،كما كان مناسبا للنصيحة الحكيمة التي تهمس ولاتشهر .

---

١) ـ مناقب الشافعي للبيهقي ١٠٦/٢ ،ومناقب الشافعي للرازي ٢٠٥ ،وروى الشريشي انه انشد الابيات انشادا . انظر شرح المقامات ١٣٩/٢.

٢) ـ المنهج الاحمد ٧١/١ .

وانظر تقاسيمه الموسيقية المتتابعة التي تلائم سرعة الهبوب وعجلة الاغتنام وتوالي الخفقان في قوله :

اذا هبّت رياحك فاغتنمها ... فعقبى كلّ خافقة سكون

ولا تغفل عن الاحسان فيها ... فلا تدري السكون متى يكون ؟ (١)

وانظر السياق المنسجم السلس المتلاحق في قوله :

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا

وقد نهجو الزمان بغير جرم ... ولو نطق الزمان به هجانا

وليس الذئب يأكل لحم ذئب ... ويأكل بعضنا بعضا عيانا (٢)

وانظر هذه التقاسيم المعنوية المفصّلة :

اذا اشئت ان تحيا سليما من الاذى ... وحظّك موفور وعرضك صيّن

لسانك لاتذكر به عورة امرئ ... فكلك عورات وللناس السن

وعينك ان ابدت اليك معايبا ... فدعها وقل ياعين للناس اعين

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ... وفارق ولكن بالتي هي احسن (٣)

وهذه الاشعار الرائقة قد فرضت نفسها على النقاد فرضا فاعترفوا بتقدّم الامام الشافعي في مضمار الشعر ،وذكر المبرّد ان الشافعي ((كان من اشعر الناس)) (٤) وشهد ابن العماد انه كان((مع جلالة قدره شاعرا مفلقا مطبوعا)) (٥). وابان ابو الفداء وابن الوردي ان اشعاره فائقة (٦) .

---

١) ـ مناقب الشافعي للرازي ٢٠٥ .

٢) ـ مناقب الشافعي للبيهقي ٨٤/٢ ،وانظر البيتين الاولين في ((المحمدون من الشعراء)) ص ١٤٠،ونسبت الابيات في معجم الادباء ٧/١٩ الى ابي الحسن البصري ،مع اختلاف في روايتها .

٣) ـ نتيجة الافكار ١٢ ،والابيات في غرر الخصائص ١٠١ دون نسبة .

٤) ـ البيهقي ٤٨/٢ . (٥) ـ شذرات الذهب . (٦) ـ تاريخ ابي الفداء ٢٩/٢ وتتمة المختصر ٢١٥/١ .